

بلدة حدة : على طريق مكة المكرمة - جدة ، منذ الانشاء حتى نهاية العصر العثماني

د.عدنان بن محمد بن فايز الحارثي الشريف*

المقدمة:-

اعتنى المسلمون بال عمران وإنشاء المدن، وتطوير القوائم منها، حتى أن المستشرق موريس لومبارد اعتبروا المسلمين من اعظم بناء المدن في التاريخ^(١)، وغدت الحواضر الإسلامية مراكز للنشاط الحضاري بكافة جوانبه ، وقد ارتبط بكل ذلك شبكة نشاطه من الطرق والدروب، نشأ على أطرافها، البلديات والمحطات، لتقديم الخدمات المختلفة التي تحمل الحجاج والزوا، وقوافل التجارة وغيرها، ضمن هذه المعطيات، نشأة بلدة حدة، والتي تعد نموذجاً لهذه الظاهرة العمرانية، والتي انبثقت منها هذه الدراسة لتلفت النظر لمراكز الخدمات التي نشأت على جوانب الطرق الرئيسية الرابطة بين الحواضر الإسلامية المختلفة.

حده: بفتح الحاء المهملة، بعدها دال مشددة^(٢). وأطلق عليها حداء بالفتح ثم التشديد^(٣). ويرى البلادي أن إطلاق اسم حدة مما درج عليه المتأخرون من الرحالة.. " وهو تحريف طراً بعد أن مرضت لغة الأمصار.."^(٤). غير أن الحربي (ت٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) سماها حدة، في وصفه الطريق بين مكة المكرمة وجدة^(٥)، أما البكري (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، فيسميها حداء^(٦)، وأما جار الله بن فهد (ت٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م) فقد أورد اسم حدة، ولم يذكر اسم حداء على الإطلاق^(٧). ويظهر أن الاسم الأقدم هو حداء، والأحدث هو حدة. كما يشير إلى ذلك من اعتنى بالدراسة المعجمية للأسماء

● عميد شئون المكتبات بجامعة أم القرى.

- ١- موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الاربعة الأولى ، ترجمة، عبدالرحمن الحميدة (دمشق ، د ت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩) ١٦١ .
- ٢- ابن فهد، جار الله بن عبد العزيز، حسن القرى في أودية أم القرى، تحقيق: أحمد ضياء العنقاوي (القاهرة: دار القاهرة، ٢٠١٤م)، ٢٢٥ .
- ٣- ياقوت ، ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان، ط٢، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥)، ج٢، ٢٢٦ .
- ٤- البلادي، عاتق غيث ، معالم مكة التاريخية والأثرية (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٨١ .
- ٥- الحربي، إبراهيم بن إسحاق، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، ط٢(الرياض: دار اليمامة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٦٥٥ .
- ٦- البكري، عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، ط٣، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ج٢، ٤٢٩ .
- ٧- جار الله بن فهد، ٢٢٥ .

الجغرافية، مثل نصر الإسكندري (ت ٥٦١هـ/ ١١٦٥م)، الذي يذكر الاسمين معاً معنواً بحداء. ومختتماً بقوله: "وأظن يقال فيها حدة أيضاً..."^(٨)، وعبارته توحي بأن حداء هي الأقدم والأصل، وحدة مستحدثة على اسم المكان. ويؤكد ذلك ياقوت (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) بأنها كانت في زمنه يطلق عليها حدة^(٩).

وبينه البلادي إلى أن اسم حدا الذي ورد في بيت الشعر
بغيتهم ما بين حداً والحشا وأوردتهم ماء الأثيل فعاصما

من نظم أبي جندب الهذلي، ليس المقصود به حدة التي نحن بصدها. "ذلك أنه توجد حداً أخرى، جبل للجدالة بطرف يلملم من الجنوب..."^(١٠) لم تبذل المصادر التاريخية الكثير من الجهد لتحديد أصل اشتقاق الاسم. ما عدا المؤرخ المكي النجم عمر بن فهد الذي حاول في (بلدانياته)^(١١) أن يوضح دلالة الاسم، إذ ينقل عنه حفيده جار الله بن فهد، أنها عرفت بهذا الاسم "...لأنها آخر وادي مر، ويقال: إنها آخر حد وادي الصفراء"^(١٢)، وهو غلط ولعله الصفراوات..."^(١٣).

ووادي مر الذي يرى ابن فهد أن اسم هذا الموضع اشتق منه، يبدأ من الجبال الغربية للحجاز شمالي مدينة الطائف، حيث يجتمع عدد من الأودية والشعاب، وبخاصة واديا الشامية واليمانية، اللذان يلتقيان في قرية سولة، ليكونا المجرى الرئيس للوادي، وهذا المجرى ينقسم إلى ثلاثة أقسام مميزة: أولها، يبدأ من قرية سولة^(١٤)، حتى أبار أبي الحصاني^(١٥)، وهنا يسمى الوادي بالزبارة. أو وادي بني عمير، وهذا القسم شديد الانحدار، ويتميز بوجود واد أصلي حفر في صخور الجبال، وواد صغير حفر في رواسب الحصى، والرمال، والطين التي تراكمت في قاع الوادي^(١٦).

٨- نصر بن عبد الرحمن الإسكندري، كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة في الأخبار والأشعار، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م)، ج١، ٣٤٩.

٩- ياقوت، ج٢، ٢٢٦.

١٠- البلادي، ٨٢.

١١- ذكر هذا الكتاب - مؤلف حسن القرى وأنه من مؤلفات جدة النجم عمر بن فهد ونقل عنه، والراجح انه مفقود، محمد الحبيب الهيلة، التاريخ المؤرخون من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر (لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٩٩٤)، ١٥٣.

١٢- الصفراء، يقصد به الصفراوات كما أوضح مؤلفه في المتن اعلاه وهو وادي بالقرب من حدة، جار الله بن فهد، حسن القرى، ١٤٣.

١٣- جار الله بن فهد، ٢٢٥-٢٢٦.

١٤- قرية سولة، على يسار الذهاب إلى الطائف من طريق السيل، وبها نخل ومزارع وعين صغيرة، جار الله بن فهد، حسن القرى، ٢٦٥-٢٦٦.

١٥- ابار ابي الحصاني، من ابار وادي مر الظهران في أعلى القسم الاوسط منه، جار الله بن فهد، حسن القرى، ٥٢.

١٦- جار الله بن فهد، ٥٢.

القسم الثاني، يمتد من أبار أبي الحصاني (عين العزيزية)، حتى بلدة حدة. ويتميز الوادي هنا بالاتساع، وقلة الانحدار نسبياً. وهذا الوادي يسمى حالياً بوادي فاطمة^(١٧)، وعرف قديماً بمر الظهران^(١٨)، وكانت حدة تعتبر حده النهائي^(١٩).

أما القسم الثالث، فيمتد من حدة حتى نهاية الوادي في البحر الأحمر، جنوبي جدة. ويزداد اتساع الوادي هنا كثيراً، وتكاد تضيق معالمه الرئيسية، ويشمل هذا القسم الفرشة الواسعة التي شكلها الوادي فيما قبل انتهائه في البحر الأحمر^(٢٠).

المصادر التاريخية لا تقدم معطيات يمكن من خلالها وضع تحديد دقيق لتاريخ هذا الموضع، وإن كان من المرجح أن وجوده ارتبط بتاريخ السكنى في وادي مر، الذي يعود لأقدم العصور التاريخية، قبل الإسلام. إذ سكن الوادي العماليق، وقبيلة خزاعة، وربما هذيل^(٢١)، التي من المؤكد أنها استوطنت في الوادي في العصر الإسلامي^(٢٢). ويظهر أن هذا الاستيطان كان بغرض الزراعة والرعي، في المنطقة بشكل عام؛ وربما شمل موضع حدة أيضاً، دون أن يترتب على ذلك ظهور نشاط عمراني فيها. لأن المصادر التاريخية التي تتحدث عن حدة من واقع أنه موضع عمراني، تشير إليها في ثنايا حديثها عن الطريق بين مكة وجدة^(٢٣)، بما يمكن من الزعم بأن ازدهار الطريق الرابط بين مكة وجدة، هو الذي أدى إلى ظهور حدة. وكذلك فإن هذا الطريق، يرجح أن ظهوره قد ارتبط بازدهار كلتا المدينتين معاً. خاصة بعد تحول جدة إلى ميناء لمكة المكرمة، بعد أن مصرها الخليفة الراشد، عثمان بن عفان، سنة ٢٦هـ/٦٤٦م^(٢٤).

فمكة المكرمة، أضحت في العصرين الأموي، والعباسي الأول على وجه الخصوص، تتمتع بازدهار اقتصادي كبير، وشهدت مشروعات عمرانية عدة^(٢٥). مما جعل من جدة ميناء رئيساً لمكة المكرمة في ذلك الوقت. فكانت المواد الخام تصل إلى مكة عبر هذا الميناء، يؤكد ذلك إرسال الأعمدة الرخام الخاصة بعمارة

١٧- جار الله بن فهد، ٥٢.

١٨- جار الله بن فهد، ٥٢.

١٩- جار الله بن فهد، ٥٢.

٢٠- جار الله بن فهد، ٥٢.

٢١- جار الله بن فهد، ٥٣- ٥٤.

٢٢- جار الله بن فهد، ٥٥.

٢٣- الحربي، ٦٥٥؛ ياقوت، ج٢، ٢٢٦؛ البتنوني، محمد لييب، الرحلة الحجازية، ط ٣ (الطائف: مكتبة المعارف، د.ت)، ١٩.

٢٤- الحارثي، محمد بن حسين، التغور البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي "البعثية"، ٦١١م- ٩٢٣هـ/٥١٧م، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٣٧؛ اليافي، عدنان عبد البديع، جدة في صدر الإسلام (جدة: دن، ١٤٣٤هـ) ٢٠٣.

٢٥- السباعي، أحمد، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط ٧، (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ج١ ١٢٣-١٢٦، ١٥٥-١٦٢.

المهدي العباسي للحرم المكي الشريف من الشام إلى جدة، ثم حملت على العجل من جدة إلى مكة^(٢٦)، عبر الطريق الرابط بينهما.

كذلك كانت السلع الغذائية وغيرها تصل إلى مكة عبر جدة. فعندما كان الطريق بين مكة المكرمة وجدة ينقطع، كانت أسعار السلع في مكة المكرمة ترتفع تبعاً لذلك^(٢٧). كما أدى ازدهار جدة إلى تعرض تجارتها ومراكبها للنهب والسلب في عهود الفوضى والاضطراب، يضاف إلى ذلك استخدام الطريق من القادمين لأداء النسك عبر هذا الميناء، مثلما حدث في سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م^(٢٨)، وسنة ٢٦٨هـ/٨٨١م^(٢٩). وبطبيعة الحال فإن وجود هذا الطريق، منطقة عبور للتجارات والحجاج، كان يقتضي وجود محطات الاستراحة على امتداده، والتي عادة ما تكون في مواضع يتوافر فيها المياه والكلأ للدواب. فظهرت حدة في ظل هذه الأوضاع. وكان أبرز مميزاتها موقعها في منتصف الطريق بين مكة المكرمة وجدة.

الحربي (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) يصف هذا الطريق فيقول " .. إذا أردت جدة تخرج من مكة فتتهبط، في ذي طوى، ثم تأخذ يسرة، ثم تأخذ في بساتين وسقايات حتى ترد المرحلة، واسمها قرين الثعلب^(٣٠)، وهي قرية بها آبار. ثم تخرج منها على حدة عشرين ميلاً، وليس بينك وبينها غير السقايات، ثم ترد جدة..."^(٣١). وحسب ما يلاحظ فإن المصادر التاريخية لا تقدم وصفاً عمرانياً عن حدة في تلك المدة.

يظهر أن حدة فقدت أهميتها، كونها محطة على الطريق، في العصر الفاطمي (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٨- ١١٧١م)، إذ إن البكري يصفها موضعاً فحسب، دون أن يشير إليها على أنها محطة على الطريق بين مكة وجدة^(٣٢). كما أن ابن جبير الذي قدم للحج سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م بعد أفول دولة الفاطميين بقليل، في مطلع الدولة الأيوبية، وقد سلك الطريق من جدة إلى مكة، لا يشير إلى حدة على الإطلاق^(٣٣). وقد تناول بعضهم أوضاع الحجاز في تلك المدة، والتي عانت من ضائقة اقتصادية^(٣٤)،

٢٦- الأزرق، محمد بن عبد الله بن أحمد، أبو الوليد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي ١٤٢٤/ ٢٠٠٣م)، ج ١، ٦٠٥.

٢٧- محمد حسين، ١٤٧.

٢٨- محمد حسين، ١٤٧.

٢٩- محمد حسين، ١٤٨.

٣٠- الحربي، ٦٥٥.

٣١- قرين الثعلب، قرية بها آبار على الطريق بين مكة وجدة، الحربي، المناسك، ٦٥٥.

٣٢- البكري، ج ٢، ٤٢٩.

٣٣- ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، رحلة ابن جبير (بيروت: دار صادر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ٥٧.

٣٤- أحمد السباعي، ج ١، ٢١٤؛ محمد حسين، ١٥٢.

انعكس آثارها على الأوضاع العمرانية لمدينتها التجارية، إذ إن ابن جبير نفسه يشير إلى التدهور العمراني الذي كانت تعاني منه جدة في تلك الحقبة^(٣٥).
غير أن ذلك لم يلبث طويلاً، إذ بدأت الأوضاع الاقتصادية بالتحسن في الحجاز، في العصر الأيوبي^(٣٦) (٥٦٧-٦١٨هـ/١١٧١-١٢٢١م). وبلغ النشاط الاقتصادي مستويات عالية في العصرين المملوكي^(٣٧) والعثماني^(٣٨).
مما كان له أكبر الأثر في انتعاش وازدهار الطريق الرابط بين مكة وجدة، إذ نجد أن المصادر تشير إلى حدة من واقع أنها محطة على هذا الطريق، كما يتضح من وصف ياقوت الحموي لها؛ فيذكر أنها بين مكة وجدة في إشارة إلى علاقة موقعها كونها محطة في الطريق بينهما^(٣٩). وهو ما يؤكد ابن بطوطة، الذي يذكر أنه نزل في حدة، في أثناء توجهه من مكة المكرمة إلى جدة، بعد أن أدى نسك الحج^(٤٠).
في العصر العثماني أضحت حدة تعرف على أنها بلدة. ذكر ذلك إبراهيم رفعت باشا، في أثناء حديثه عنها، بالرغم من أنه يشير إلى أن موكب الحاج في تلك الأثناء، سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م، لم يعد يتوقف في حدة واستبدل بحرة^(٤١) بها. بسبب اعتداء أهلها على الحجاج قبل مروره بها^(٤٢). في حين أن البنتوني يشير إلى أن القوافل بعضها يتوقف في بحرهِ والبعض الآخر يتوقف في حدة^(٤٣).

٣٥- ابن جبير، ٥٣.

٣٦- أحمد السباعي، ج١، ٢٤٤-٢٤٩.

٣٧- أحمد السباعي، ج١، ٣٢١-٣٣٧.

٣٨- أحمد السباعي، ج٢، ٤٦١-٤٦٥، ٥٦٧.

٣٩- ياقوت، ج٢، ٢٢٣٦.

٤٠- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق: محمد العريان ومصطفى القصاص، ط ٢، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج١، ٢٥١.

٤١- بحرهِ، بلدة بين مكة وجدة، وكانت تعد محطة رئيسة على الطريق، البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، (الطائف، نادي الطائف الأدبي، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م). ج١/١٨٣.

٤٢- رفعت إبراهيم باشا، مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (دم، د ن، دت)، ج١، ٢٥.

٤٣- البنتوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، دت) ٨٥.

توافر موارد المياه في حدة كان عاملاً لتوقف القوافل العابرة بها للسقاية منها. ففي سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م صدر الأمر السلطاني، بالقبض على الشريف علي بن حسن بن عجلان^(٤٤) وأخيه إبراهيم^(٤٥)، ووضعهما في الترسيم، لنقلهما إلى القاهرة، عن طريق ميناء جدة، فمرت القافلة بحدة واستسقوا من مائها^(٤٦). ومن الواضح أنه كان بها أماكن للمبيت للراغبين من العابرين في الطريق، كما حدث في السابع عشر من شوال لسنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، إذ "... سافر أولاد القاضي الشافعي^(٤٧)، وعياله إلى جدة، وتخلف هو بعدهم، إلى ثاني ليلة إلى حداء، وأقام بها إلى أن جاءه القاضي، كاتب السر^(٤٨)، ليلة الخميس، وضلوا [ظلوا] بها يوم الخميس، وتوجهوا إلى جدة...^(٤٩). وفي أثناء ولاية أمير مكة الشريف مبارك بن أحمد (٥٠) سنة

٤٤- علي بن حسن بن عجلان ، ولي إمارة مكة المكرمة مشاركة مع أخيه إبراهيم سنة ٨٤٢ هـ ، ثم مالبث أن قبض عليهما ، وإخذا في الترسيم إلى مصر حتى توفي بدمياط سنة ٨٥٣ ، السنجاري ، علي بن تاج الدين بن تقي الدين ، منائح الكرم في اخبار مكة والبيت وولاه الحرم ، تحقيق ، جميل المصري ، ماجدة زكريا ، ملك خياط (مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ج٣ ، ٤١-٤٣ ، عارف احمد عبدالغني ، تاريخ أمراء مكة المكرمة ، (دمشق دار سعد الديني ، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م) ، ٥١٥-٥١٨.

٤٥- إبراهيم بن حسن بن عجلان ، كان نائباً لأخيه بركات على مكة المكرمة ، اخذ في الترسيم إلى مصر مع أخيه علي ، وتوفي في دمياط مسجوناً سنة ٨٥٥ هـ ، السخاوي ، محمد بن عبدالرحمن، الضوء اللامع (بيروت ، دار الجيل ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ج١ ، ٤١.

٤٦- النجم، ابن فهد، عمر بن محمد، ، إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: فهد محمد شلتوت، وعبد الكريم علي باز، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٤، ١٨٧-١٨٨.

٤٧- القاضي الشافعي ، اتبع القضاء في نظامه في مكة المكرمة ، ما كان متبعاً في مصر في العصر المملوكي بحيث يكون لكل مذهب قاضي .ليلي أمين عبدالمجيد ، التنظيمات الادارية والمالية في مكة المكرمة في العصر المملوكي (لندن ، مؤسسة الفرقان ، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م) ١٩٠-١٩١.

٤٨- كاتب السر، هو احد الموظفين الكتبة، ويطلق أيضاً على متولي ديوان الانشاء، ظهر هذا المصطلح في العصر العباسي وانتشر في الدول التي تفرعت عن الدولة العباسية، حسن الباشا، الفنون الإسلامية، الوظائف على الآثار العربية (القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م) ج٢/٩٢٢.

٤٩- العز بن فهد، عبد العزيز بن عمر، بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: صلاح الدين خليل وعبد الرحمن أبو الخيور وعلبان المحلبي، (القاهرة: دار القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ج٢ ١٠٩٨.

٥٠- مبارك بن احمد بن زيد ، شريف مكة ، وأميرها في العصر العثماني ، ولي أمر مكة اكثر من مرة ، توفي سنة ١١٤٠ هـ ، عبدالفتاح حسين راوه ، أمراء البلد الحرام (الطائف ، مكتبة المعارف ، ت) ٢٨٨-٢٩٣.

١١٣٦هـ/١٧٢٣م، توجه الشريف مبارك إلى جدة، فنزل، في الطريق، في حدة، وبات فيها، ثم توجه صبيحة ثاني يوم إلى جدة...^(٥١).

تزايد أهمية حدة جعلها منطقة صراع سياسي، وعسكري في العصر المملوكي بشكل خاص. من أبرز الأمثلة على ذلك أن الشريف مكة كان لا يقبل أن يقيم المناوئون له في حدة، ففي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م، وصل السيد رميثة بن محمد بن عجلان^(٥٢) إلى حدة على حين غرة، فلما بلغ ذلك أمير مكة، الشريف حسن بن عجلان^(٥٣)، أمر بإخراجه منها، فعاد إلى ينبع، وذلك حتى لا يكون وجوده خطراً على إمارته في مكة المكرمة^(٥٤).

وحدث في سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م أن اجتمع لفيف من الأشراف وأتباعهم، ونزلوا بحدة، مخالفين لأمر أمير مكة، الشريف حسن بن عجلان "... فلم يسهل به ذلك، وكثر ميله ونصرته للمعاندین للشرفاء من القواد؛ فتعبوا لذلك، ورحلوا من حدا، بعد إقامتهم بها شهر رمضان، وأياماً من شوال، بعد أن صرف لهم نحو ألف وخمسمائة أفلوري..."^(٥٥).

كانت حدة نقطة تجمع، إما لقوات الشريف مكة، أو لقوات المناوئين له، في صراعهم على إمرة مكة المكرمة، أو مدن الحجاز الساحلية، ووادي مر (فاطمة)؛ كما حدث في سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، في صراع الشريف حسن بن عجلان، أمير مكة، مع قرابته من آل أبي نمي الأول، إذ استولى بعضهم على حدة. وأظهر المجتمعون منهم في وادي مر بوادر التمرد على حكمه؛ فجمع جموعه وحشد لهم في حدة قبل أن تنتهي معهم الأمور صلحاً فيما بين الطرفين^(٥٦).

وعندما تنازل الشريف حسن بن عجلان عن إمارة مكة المكرمة لابنه الشريف بركات^(٥٧) سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م تجمع ذو رميثة وذو أبي نمي، وأتباعهم في حدة. يصف النجم ابن فهد هذا الموقف بقوله: "... ولم يسهل بالسيد حسن نزولهم

٥١- الغازي، عبد الله بن محمد المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ج٢، ٦٠٦.

٥٢- رميثة بن محمد بن عجلان، ولي إمرة مكة مدة من الزمن ولم تحمد سيرته، وعزل عنها، توفي سنة ٨٣٧ هـ، السخاوي الضوء، ج٣/ ٢٣٠.

٥٣- حسن بن عجلان بن رميثة، أمير مكة ونائب السلطنة المملوكة في الحجاز، ولي الإمارة والنيابة أكثر من مرة، توفي بالقاهرة ٨٢٩ هـ، السخاوي، الضوء، ج٣/ ١٠٣-١٠٤.

٥٤- النجم بن فهد، ج٣، ٥٠٤.

٥٥- النجم بن فهد، ج٣، ٥٦٥.

٥٦- النجم ابن فهد، ج٣، ٥٤٣-٥٤٦.

٥٧- بركات بن حسن بن عجلان، أمير مكة وشريفها كان عالماً ذا همة عالية ولي إمرة مكة أكثر من مرة، توفي سنة ٨٥٩ هـ، السخاوي، الضوء، ج٣/ ١٣-١٤.

بحدة... " (٥٨)؛ قبل أن يضطر للتراجع عن قرار التنازل لابنه عن إمارة مكة المكرمة (٥٩).

أمير مكة الشريف علي بن حسن بن عجلان، جمع قواته في حدة سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م، بغرض الهجوم على جدة تمهيداً لاسترجاعها، من أخيه بركات الذي كان قد استولى عليها في مطلع السنة نفسها (٦٠).

المصادر التاريخية لا توفر معطيات كافية عن التكوين العمراني لحدة. وأقدم الإشارات الواردة في هذا المجال، ما قاله ياقوت الحموي بأن بها حصناً (٦١)؛ ولكن لا يتوافر عنه أي معطيات تحدد تاريخ عمارته، ويظهر أنه كان في مطلع القرن ٧هـ/١٣م، لأن ابن جبير، في أثناء رحلته، لم يذكر المكان على الإطلاق، كما سبق ذكره، وهذا يدل على عدم وجود الحصن آنذاك... وابن جبير كانت رحلته إلى مكة المكرمة، أواخر القرن ٦هـ/١٢م (٦٢).

كما أن ذكر المبيت فيها لبعض الأعيان وأمراء مكة من الأشراف، كما سبق أن ذكر، يدل على وجود مرافق مخصصة لهذا الغرض. يدل على ذلك أن الشريف مبارك بن أحمد، عندما بات في حدة، نزل في دور مخصصة لذلك (٦٣).

إبراهيم رفعت باشا عندما يتحدث عن حدة، يذكر أنها بلدة صغيرة، بها حصن، ومسجد ذو مئذنة (٦٤).

ويذكر ناصر الحارثي أن العثمانيين أنشأوا بحدة منهلين لسقاية المياه لا يزالان باقيين حتى الوقت الحاضر (٦٥)، ولكنه بالمعينة الميدانية لموقع حدة وجد أنهما منهل واحد وسقاية دواب، ويقعان على حد الحرم وليس ضمن النطاق الجغرافي لبلدة حدة التاريخية، وقد أشار إلى ذلك عادل غباشي (٦٦) في دراسته القيمة عن المنشآت المائية.

٥٨- النجم ابن فهد، ج٣، ٥٥٥.

٥٩- النجم ابن فهد، ج٣، ٥٥٥-٦٥٦.

٦٠- النجم ابن فهد، ج٤، ١٧٨-١٨١.

٦١- ياقوت، ج٢، ٢٢٦.

٦٢- ابن جبير، ٥٧.

٦٣- الغازي، ج٣، ٦٠٦.

٦٤- إبراهيم رفعت، ج٤، ٢٧.

٦٥- الحارثي، ناصر بن علي، الآثار الإسلامية في مكة المكرمة (الرياض: د ن، ذ ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م)، ٢٩١-٢٩٢.

٦٦- عادل محمد نور غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني - دراسة حضارية، دكتوراة منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٤٣٣-٤٣٤.

كان بحدة نشاط زراعي كبير، إذ إن الشريف سليمان بن علي بن عبد الله الحسني^(٦٧)، اشترى أرضاً مزروعة بحداء، وبقيت في يد ذريته يستزرعونها، حتى اشتراها منهم الشريف الحسين بن ثابت الشديدي^(٦٨)، وغرس في جميع الأرض نخلاً بلغ عددها عشرين ألف نخلة. وقد تملك هذا النخل أمير تركي، يدعى الطينغا^(٦٩)، كان كان والياً على مكة سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م^(٧٠). وفي عصر دولة المماليك أضحى هذا النخل ملكاً للسلطان المملوكي، كما يشير إلى ذلك النجم بن فهد (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٥١م)^(٧١). غير أنه في أواخر ذلك العصر، حدث تغيير في ملكيته، إذ ترد النصوص بتملك بعض أعيان المكيين لمزارع النخل في حدة. فقد ورد في أخبار سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م، أنه كان لأبي اليمن بن أبي الطيب^(٧٢)، نخل "... اشتراه من ابن الطاهر^(٧٣) بحداء، ونخل الشيخ عبد المعطي..."^(٧٤)، يؤكد ذلك أيضاً أن جار الله بن فهد يقول عن مزارع النخل في حدة، بأنها كانت قد أضحت ملكاً لجماعة من أعيان مكة المكرمة^(٧٥)، مما يدل على حالها خلال حكم العثمانيين للحجاز. غير أن زراعة النخل قد تراجعت أواخر عصر العثمانيين، في حده، إذ إن إبراهيم رفعت يذكر أنه كانت بها ستمائة نخلة فقط، كانت ملكاً للأمير مكة، عون الرفيق^(٧٦).

ازدهار الزراعة في حدة، آنذاك، يعكس وفرة الماء فيها، إذ تذكر النصوص التاريخية، أن الشريف سليمان بن علي استنبط عيناً في حدة^(٧٧)، يذكر جار الله بن فهد، بأن طعم مائها أجاج، لقربها من البحر^(٧٨)؛ في حين أن إبراهيم رفعت يذكر بأن

٦٧- سليمان بن علي بن عبد الله الحسني بن سليمان بن علي بن محمد التائر، لا تعرف وفاته على وجه التحديد ويرجح أنها كانت في القرن الرابع الهجري، جار الله بن فهد، حسن القرى، (٥٧، هامش، ٣).

٦٨- الحسن بن ثابت الشديدي، يظهر أنه من عقب الحسين الشديدي أخو سليمان المذكور في الهامش السابق، جار الله بن فهد، حسن القرى، (٥٧، هامش، ٤).

٦٩- جار الله بن فهد، ٥٧.

٧٠- الفاسي، محمد بن أحمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد السيد، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م)، ج ٥، ٧٥٣.

٧١- نقلاً عن جار الله بن فهد، ٢٢٦.

٧٢- أبي اليمن بن أبي الطيب، لم اعثر على ترجمة له فيما تيسر للباحث الاطلاع عليه من مصادر ومراجع.

٧٣- أبين الطاهر لم اعثر على ترجمة له فيما تيسر للباحث الاطلاع عليه من مصادر ومراجع.

٧٤- العز بن فهد، ج ٢، ١٢٣٩- ١٢٤٠.

٧٥- جار الله بن فهد، ٢٢٧.

٧٦- إبراهيم رفعت، ج ١، ٢٧. عون الرفيق بن محمد بن عون بن محسن، ولي أمانة مكة في العصر العثماني توفي سنة ١٣٢٣هـ عارف، تاريخ أمراء مكة المكرمة ٦٩٢- ٦٩٣.

٧٧- جار الله بن فهد، ٢٢٦.

٧٨- جار الله بن فهد، ٢٢٦.

طعم مائها حلو^(٧٩)، مما يشير إلى تغير أحوال العين. ولعل ذلك بسبب وفرة مياه الأمطار أو قتلها، فيؤثر ذلك في عذوبة العين. بالإضافة إلى العين، كان في حدة أبار أخرى^(٨٠).

استوطن في حدة، عبر تاريخها الطويل، عناصر اجتماعية مختلفة. أولى الفئات التي تذكر المصادر سكانها بشكل مباشر في حدة هم بنو البدرية. ثم استوطن بعدهم الأشراف، والشاهد على ذلك شراء الشريف سليمان للأرض منهم؛ ومن بعده الشريف الحسين الشريدي^(٨١). كما سكنها من الأشراف بعض القتاديين، يشير إلى ذلك خبر ذكره العز بن فهد، في أحداث سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، عن وفاة شنتم الجازاني، ابن أمير مكة الشريف جمال الدين محمد بركات، في حلة أهله بحدّة^(٨٢).

بعض أهل مكة توسعوا في التملك في حدة للبساتين، مما جعل بعضهم يقيم فيها بشكل دائم أو مؤقت. وهذا ما جعلهم عرضة لبعض الأحداث والجرائم. ففي سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م، قتل ولد وبنت لأحد المكيين خنقاً ثم غرقاً في عين حدة، وقبض على الفاعل، فكانت بدوية مولدة، أُخذت إلى مكة، واعترفت بجريمتها؛ فنفذ فيها حكم مماثل لجرمها في بركة ماجن، أسفل مكة^(٨٣).

٧٩- إبراهيم رفت، ج١، ٢٧.

٨٠- إبراهيم رفت، ج١، ٢٧.

٨١- جار الله بن فهد، ٢٢٦.

٨٢- العز بن فهد، ج١، ٢٨.

٨٣- جار الله بن فهد، محمد بن عبد العزيز، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الوري، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج١، ٢٥٢.

نتائج الدراسة :

أولاً : تكشف هذه الدراسة عن ظاهرة حضارية شهدتها الطرق الرئيسية التي تتخلل العالم الإسلامي ، حيث نشأت على أطرافها البلدات والمحطات ، وبلده حده نموذجاً لهذه الظاهرة .

ثانياً: كانت بلدة حدة في بداية نشأتها محطة على الطريق بين مكة وجدة ، ثم تحولت إلى مركز عمراني له أهميته على الطريق

ثالثاً: كان لموقع حدة أثر في أن تمارس ادواراً سياسية في العصر المملوكي .

رابعاً: ضرورة إحياء الطريق القديم بين مكة وجدة كمعلم تاريخي حضاري ، وتوظيف مكوناته التراثية لهذا الغرض .

